ترابط الآيات وأغراضها في سورة البقرة

السيد جعفر شرف الدين

تاريخ نزولها ووجه تسميتها:

نزلت سورة البقرة بعد سورة المطفِّفين، وهي أول سورة نزلت بالمدينة، وأطول سورة في القرآن، فيكون نزولها فيما بين الهجرة وغزوة بدر.

وقد سمِّيت هذه السورة بهذا الإسم لأنّ قصة بقرة بني إسرائيل ذكرت فيها، وتبلغ آياتها ستاً وثمانين ومائتيّ آية.

الغرض منها وترتيبها:

ولما هاجر النَّبيّ (ص) إلى المدينة نصبت أحبار يهودها له العداوة بغياً وحسداً، ومال إليهم المنافقون من الأوس والخزرج، فكان أولئك الأحبار يسألونه ويتعنّتونه ويأتونه باللّبس ليلبسوا الحق بالباطل، فنزلت سورة البقرة في أولئك الأحبار وفيما يسألون عنه، وفي أولئك المنافقين الذين مالوا إليهم، وفيما نزل من أحكام العبادات والمعاملات بعد استقرار الإسلام بالمدينة، وقد صار بها للمسلمين جماعة تحتاج إلى هذه الأحكام في أمر دينها ودنياها.

فيكون الغرض المقصود من هذه السورة الرد على أولئك الأحبار ومن مال إليهم من المنافقين، وبيان فساد ما شغبوا به في أمر القرآن، وفي أمر النَّبيّ (ص)، وقد جرَّ هذا إلى ذكر كثير من أمورهم، جرى بعضها مجرى الترغيب، وجرى بعضها مجرى الترهيب، ثم تخلص من هذا إلى بيان ما نزل على المسلمين في هذا العهد من الأحكام اللازمة لهم في عباداتهم ومعاملاتهم.

وقد ابتدأت هذه السورة بإثبات نزول القرآن من عند الله، ليكون تمهيداً لبيان فساد ذلك الشَّغب الذي قام في أمره وفي أمر النَّبيّ (ص)، وهذا هو وجه المناسبة في ذكرها بمدّ سورة الفاتحة، وهذا إلى أنها أطول سورة في القرآن.

دعوة تنزيل القرآن ـ الآيات: ١ ـ ٢٢

قال الله تعالى: **﴿ألم، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتّقين﴾** فذكر أنَّ القرآن نزل قطعاً من عنده، وأخذ في التنويه بشأنه، فذكر أنَّه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب، إلى غير هذا ممَّا ذكره من أوصافهم، ثم ذكر مخالفيهم من أحبار اليهود والمنافقين، ووصف نفاق المنافقين من المشركين أشنع وصف، وضرب في شناعة أمرهم المثلٍ بعد المثل، ثم أمرهم أن يعبدوه لأنَّه هو الذي خلقهم والذين من قبلهم، وجعل لهم الأرض فراشاً والسماء بناءً **﴿وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾**.

الاستدلال على تنزيل القرآن ـ الآيات: ٢٣ ـ ٢٥

ثم قال تعالى: **﴿وإن كنتم في ريب ممَّا نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾** فأقام الدليل على تنزيل القرآن من عنده بتحديهم أن يأتوا بسورة من مثله، وأمرهم أن يدعوا في ذلك آلهتهم ليعينوهم على الإتيان به، ثم حذرهم من الاستمرار على الكفر بعد ذلك التحدّي، وبشر المؤمنين بأنَّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار **﴿كلَّما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون﴾**.

الردّ على مقالة اليهود الأول في القرآن ـ الآيات: ٢٦ ـ ٩٠

ثم قال تعالى: **﴿إنَّ الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضةً فما فوقها﴾** الآية، فردَّ على مقالتهم الأولى في القرآن، وذلك أنَّه لما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت وذكر النحل والنمل قال اليهود: ما أراد الله بذكر هذه الأشياء الخسيسة؟ وقال المنافقون: لا نعبد إلهاً يذكر هذه الأشياء، فردَّ عليهم بأنَّه لا يستحي أن يضرب ذلك مثلاً، وقد كانت العرب تضرب الأمثال بمثل هذا، فتقول: هو أحقر من ذَرة، وأجمع من نملة.

ثمَّ ذكر أنَّ المؤمنين يعلمون أنَّه الحق من ربهم، وأنَّ الكافرين ينكرونه ويضلّون به، لأنَّهم فاسقون ينقضون ما أخذ عليهم من العهد لأول خلقهم أن يؤمنوا بما يأتيهم من هديه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل من اتباع دينه، ويفسدون في الأرض بالقتل والغصب والنهب وسائر أنواع الفساد، ثم أنكر على المنافقين منهم أن يكفروا به مع أنَّهم كانوا أمواتاً فأحياهم إلخ، ومع أنَّه هو

الذي خلق لهم ما في الأرض جميعاً إلخ.

ثمَّ انتقل من هذا إلى ذكر قصة آدم ليمهد بها إلى ذكرِ ما أخذه من العهد عليهم عند خلقهم، ولهذا ختمها بقوله: **﴿قلنا اهبُطوا منها جميعاً فإمَّا يأتينَّكم مِنّي هدىً فمن تبع هدايَ فلا خوفُ عليهم ولا هم يحزنون، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾**.

ثم انتقل من توبيخ المنافقين على كفرهم به إلى توبيخ اليهود الذين يزينون لهم هذا الكفر، ويؤثرونهم على النبيّ (ص) وهو يدعو إلى الإيمان به، وفي هذا مشاركة لهم في كفرهم به، فأخذ يذكرهم بنعمته عليهم، ويأخذهم تارة بالترغيب وأخرى بالترهيب، ويذكر في هذا ما مضى من أحوالهم وأخبارهم، فأمرهم أولاً أن يذكروا نعمته عليهم، وأن يفوا بالعهد الذي أخذه عليهم فلا يؤثروا من يكفر به على من يؤمن به، وأن يؤمنوا بالقرآن الذي نزل مصدقاً لما معهم، ونهاهم أن يلبسوا الحق بالباطل بمثل تلك المقالة في إنكار ما ضربه مثلاً من الذباب ونحوه، إلى غير هذا ممَّا أمرهم به ونهاهم عنه.

ثم أمرهم ثانياً أن يذكروا نعمته عليهم وتفضيله لهم على العالمين، وأن يتَّقوا يوماً لا يغني فيه أحد عن أحد شيئاً، وأخذ يذكرهم ببعض نعمه عليهم وبعض ما مضى من أحوالهم وأخبارهم، فذكر أنَّه نجاهم من آل فرعون، وكانوا يسومونهم سوء العذاب من ذبح الأبناء واستحياء النساء، وأنَّه فرق بهم البحر فأنجاهم وأغرق آل فرعون، وأنَّه وعد موسى أربعين ليلة فعبدوا العجل من بعده فعفا عنهم، ولم يعاقبهم بما عاقب به من قبلهم، وأنَّه أنزل على موسى التوراة لهدايتهم، وأنَّه أمرهم بقتل أنفسهم لعبادتهم العجل ثم نسخ ذلك الأمر رحمة بهم، وأنَّهم قالوا لموسى: **﴿لن نؤمنَ لك حتَّى نرى الله جهرة﴾** فأخذتهم الصاعقة عقوبة لهم، ثم بعثهم من بعد موتهم وظلَّل عليهم الغمام وأنزل عليهم المنَّ والسَّلوى، وأنه أمرهم أن يدخلوا بيت المقدس على حالة مخصوصة فبدَّلوا في ذلك وغيَّروا، فأخذ من بدَّل وغيّر بما أخذه به، وأنَّ موسى استسقى لهم فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً بعدد أسباطهم، وأنَّهم لم يصبروا على طعامٍ واحد في تيههم **﴿المنَّ والسلوى﴾** فطلبوا منه أن يدعو ربه ليخرجَ لهم من الأرض بَقلاً وقِثاءً وفُوماً وعدساً وبصلاً، فأمرهم بأن يهبطوا مصراً من الأمصار ليجيبهم إلى سؤالهم، وذكر أنَّ مثل هذا ممَّا ضربت به عليهم الذلَّة والمسكنة، وممَّا كان سبباً في غضب الله عليهم، لأنَّهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيّين بغير الحق، ويرتكبون من العصيان والاعتداء ما يرتكبون، وقد استطرد من هذا إلى ذكر حسن جزائه لمن آمن به من المسلمين واليهود والنصارى والصائبين، جميعاً بين الوعد والوعيد، وذكراً للترغيب بعد الترهيب.

ثمَّ عاد إلى السياق الأول فذكر أنَّه أخذ عليهم ميثاقهم أن يؤمنوا به، ورفع فوقهم الطور عند أخذه عليهم، فنقضوا ميثاقهم وكفروا به، ولولا فضله عليهم لأهلكهم بذلك كما أهلك من قبلهم، وذكر أنَّهم يعلمون الذين اعتدوا منهم في السبت فمسخوا قِرَدَةً جزاءً لهم على اعتدائهم، وأنَّ موسى ذكر لهم أنَّ الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة فلم يبادروا إلى امتثال أمره، بل أخذوا يطلبون منه أن يسأل

ربه ما هي؟ فأجابهم بأنّها بقرة لا فارض ولا بكر، ثم طلبوا منه أن يسأله ما لونها؟ فأجابهم بأنّها بقرة صفراء فاقع لونها، ثم طلبوا منه أن يسأله ثانياً ما هي؟ فأجابهم بأنّها بقرة لا ذلولٌ تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلّمة لا شية فيها، فذبحوها بعد كل هذا وما كادوا يفعلون، ثم ذكر بعد هذا معجزتها في النفس التي قتلوها ولم يعرفوا قاتلها، وأنَّ قلوبهم قست بعد هذه المعجزة حتى صارت كالحجارة أو أشد قسوة.

ثمَّ ذكر أنَّ مثل هؤلاء لا يصح للنَّبيّ (ص) وأصحابه أن يطعموا في إيمانهم، لأنَّهم في ذلك مثل أسلافهم، فمنهم من يسمع بشارة التوراة بالنَّبيّ (ص)، ثم يحرفها من بعد أن عقلها وعرفها، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنّا أنَّ صاحبكم نبي، ولكن إليكم خاصّة، وإذا خلا بعضهم إلى بعض تعاتبوا على هذا الإقرار مع ما فيه من التحريف. ومنهم أميُّون جهلاء لا يعلمون التوراة إلاَّ أمانيَّ يمنيهم بها أحبارهم، فيزعمون أنَّ الله لا يؤاخذهم بخطاياهم، وأنَّ النار لا تمسّهم إلاَّ أياماً معدودة بقدر أيام الخلق، وهي ستة أيام، ثم ردَّ عليهم ذلك بأنَّ من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فهو مخلد في النار، ومن آمن وعمل صالحاً فهو مخلّد في الجنة، ثم أخذ يذكر لهم بعضاً من سيئاتهم، فذكر أنه أخذ عليهم ميثاقهم أن يخصوه بالعبادة ويحسنوا إلى الوالدين وذي القربى، إلى غير هذا بما أخذ ميثاقهم عليه، فتولَّوا عنه إلاَّ قليلاً منهم، وأنَّه أخذ عليهم ميثاقهم ألاَّ يسفكوا دماءهم ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم، فخالفوا هذا أيضاً، ثم ذكر أنَّ جزاء من يفعل ذلك إنَّما هو الخزي في الدنيا، ويوم القيامة يرد إلى عذاب أشدّ من عذاب دنياه.

ثمَّ أخذ يوبخهم على كفرهم واعتيادهم له من قديمهم، فذكر أنَّهم كانوا كلّما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا عليهم، فكذبوا بعضهم وقتلوا بعضهم، ثم ذكر أنَّهم لما جاءهم القرآن أنكروه على عادتهم، مع أنَّه جاء مصدّقاً لما معهم، ومع أنَّهم كانوا في قبله يستفتحون على مشركي العرب بالرسول المنتظر، فلمَّا جاءهم ما كانوا ينتظرونه كفروا به حسداً أن يكون هناك رسول من غيرهم ﴿**فباؤوا بغضب على غضبٍ وللكافرين عذابٌ مهين**﴾.

الردّ على مقالتهم الثانية ـ الآيات: ٩١ ـ ٩٦

ثم قال تعالى: ﴿**وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمنُ بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحقُّ مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين**﴾ فذكر مقالتهم الثانية في القرآن، وهي زعمهم أنهم مأمورون ألاَّ يؤمنوا إلاَّ بما أنزل إليهم، وقد ردَّ عليهم بأنَّ القرآن أتى مصدقاً لما معهم، وبأنَّهم قتلوا أنبياءهم وقد أتوهم بما أنزل إليهم، وبأنَّ موسى أتاهم بالتوراة فعبدوا العجل حين غاب عنهم أربعين يوماً، وبأنه أخذ ميثاقهم أن يأخذوا ما أتاهم بقوة ويسمعوا له، فقالوا سمعنا وعصينا ولم ينزعوا عبادة العجل من قلوبهم، وبأنَّهم لو كانوا هم المخصوصين بالآخرة حتى لا تكون رسالة في غيرهم لتمنَّوا الموت استعجالاً لثوابها، وهم لا يتمنّونه أبداً خوفاً من سوء

أعمالهم، وما يعلمه الله من كفرهم وظلمهم ﴿ولتجدنَّهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يودُّ أحدهم لو يعمَّرُ ألف سنةٍ وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمَّر والله بصيرٌ بما يعملون﴾.

الرّدّ على مقالتهم الثالثة ـ الآيات: ٩٧ ـ ١٠٥

ثم قال تعالى: ﴿قل من كان عدواً لجبرائيل فإنَّه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدىً وبشرى للمؤمنين﴾ فذكر مقالتهم الثالثة، وهي طعنهم في القرآن بأنَّه نزل به جبرائيل وهو عدوهم، لأنّه ينزل بالشدة والقتال، وميكائيل ينزل بالبشر والرخاء، فردَّ عليهم بأنَّ جبرائيل إنَّما نزله بإذنه، وهددهم على هذه العداوة لله وملائكته، وذكر أنَّه أنزل من ذلك آيات بيِّنات لا يكفر بها إلاَّ الفاسقون، ثم وبخهم على نقض عهدهم مع النَّبيِّ (ص) بطعنهم في القرآن، وعلى أنَّهم ينبذونه وراء ظهورهم وهو مصدِّق لما معهم، ويتبعون ما ينسبونه زوراً إلى سليمان وهارُوت وماروت من كتب السحر ونحوها، فيستعملونها في الأعمال السحرية كالتفريق بين الرجل وزوجه، ويتعلمون منها ما يضرّهم ولا ينفعهم، ولو أنَّهم آمنوا بالقرآن بدلها لكان خيراً لهم، ثم حذّر المؤمنين من مشاركتهم في بعض كفرهم، وكانوا يقولون للنَّبيِّ (ص): ﴿راعينا﴾ وهي كلمة عبرية أصلها ﴿راعينا﴾ أي اسمع لا سمعت، فيقولونها له استهزاءً وطعناً في نبوته، وكان المؤمنون يقولون له: ﴿راعنا﴾ إذا تلا عليهم شيئاً من العلم ليتمهل عليهم، فأمروا أن يقولوا بدلها: ﴿انظرنا﴾ ليخالفوهم في مقالتهم، ثم حذّر المؤمنين من اتباعهم في هذا أو نحوه فقال: ﴿وما يودُّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خيرٍ من ربكم والله يختصُّ برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾.

الردّ على مقالتهم الرابعة ـ الآيات: ١٠٦ ـ ١١٠

ثم قال تعالى: ﴿ما ننسخ من آيةٍ أو ننسها نأتِ بخيرٍ منها أو مثلها ألم تعلم أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾ فذكر مقالتهم الرابعة في القرآن، وهي طعنهم في معجزته، وقول بعضهم للنَّبي (ص): يا محمّد، ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه، وفجّر لنا أنهاراً، نتَّبعك ونصدقك، فذكر لهم أنه لا ينسخ آية من آيات الرسل أو ينسيها بآية أخرى إلاَّ كانت الأخرى خيراً من الأولى أو مثلها، وأنَّه هو الذي يتصرف في تلك الآيات كيف يشاء بما له من ملك السماوات والأرض، وأنه لا شريك له في ذلك الملك، ثم وبخهم وذكر أنهم يتعنتون بسؤال هذه الآيات كما تعنت أسلافهم على موسى بسؤال مثلها، ثم حذّر المؤمنين من انخداعهم بتعنتهم في ذلك، وذكر أنَّهم يودون به أن يردوهم كفاراً حسداً لهم على إيمانهم، وأمرهم أن يعفوا ويصفحوا حتى يأتيهم بأمره فيهم، إنَّ الله على كل شيء قدير ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدِّموا لأنفسكم من خيرٍ تجدوه عند الله إنَّ الله بما تعملون بصيرٌ﴾.

الردّ على مقالتهم الخامسة ـ الآيات: ١١١ ـ ١١٧

ثم قال تعالى: ﴿**وقالوا لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيُّهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**﴾ فذكر مقالتهم الخامسة، وهي قول اليهود والنصارى: ﴿**لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً أو نصارى**﴾ لأنه لا دين إلاّ دينهم، وقد ردَّ عليهم بأنَّ تلك أمانيُّ لا دليل عليها، وبأنَّ كل من آمن به وأحسن في عمله فله أجره عنده ولو لم يكن يهودياً أو نصرانياً، وبأنَّ كلاً من اليهود والنصارى يطعن في دين الآخر، ولا يسلِّم بأنَّه يدخل الجنة، مع أنَّهم جميعاً يتلون التوراة، وبأنَّ المشركين الذين لا علم عندهم يزعمون أيضاً أنَّ الآخرة لهم، وبأنَّهم يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ويسعون في خرابها، كما خرب النصارى بيت المقدس، ولا يوجد أظلم ممَّن يفعل ذلك بالمساجد، ومثله لا يصح له أن يزعم أنَّه لا يدخل الجنة غيره، وإنَّما جزاؤه الخزي في الدنيا، وله في الآخرة عذاب عظيم، ثم ذكر أنَّ له المشرق والمغرب، وأنَّ الناس أينما يولّوا وجوههم فثمَّ وجهه، فلا يصح أن يُسعى في خراب المساجد لاختلاف قبلتها، كما فعل النصارى مع اليهود في بيت المقدس، ثم ذكر إلى هذا من قبائح النصارى أنهم يزعمون أنَّ لله ولداً، وهو من الكفر الذي لا يصح لصاحبه أن يطمع في دخول الجنة، وردَّ عليهم هذا بأنَّ ما له ما في السماوات والأرض كل له قانتون ﴿**بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمراً فإنَّما يقول له كُن فيكون**﴾.

الرد على مقالتهم السادسة ـ الآيات: ١١٨ ـ ١٣٤

ثم قال تعالى: ﴿**وقال الذين لا يعلمون لولا يكلِّمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بيَّنَّا الآيات لقوم يوقنون**﴾ فذكر مقالتهم السادسة، وهي قول بعضهم للنبيّ (ص): يا محمَّد، إن كنت رسولاً من الله كما تقول، فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه. وقد ردَّ عليهم بأنَّ هذا من التعنّت الذي كان يسلكه من قبلهم مع رسلهم، وبأنَّه قد أرسله بالحق بشيراً ونذيراً، وليس عليه إلاّ أن يبلغه، ولا يسأل بعد هذا عن تعنتهم وكفرهم، لأنَّهم لا يرضون عنه حتى يتبع ملتهم، ولأنَّ الهدى هداه ولو شاء لهداهم، وبأنَّ المنصفين منهم يؤمنون بما أنزل إليه، ويعرفون أنَّه الرسول المبشّر به، ولما كانت هذه شهادة منهم وفيها أكبر حجة عليهم، عاد إلى تذكيرهم ثالثاً بنعمته عليهم وتفضيلهم على العالمين، وتخويفهم من يوم لا يغني فيه أحد عن أحد شيئاً؛ ليحملهم على الإقرار بهذه الشهادة، ثم شرع في ذكر قصة إبراهيم وإسماعيل وبنائهما البيت بمكة، إلى أنْ ذكر دعاء إبراهيم له أن يبعث في أهلها رسولاً منهم يعلّمهم الكتاب والحكمة، ليدلَّهم على موضع البشارة به في كتبهم، ويحملهم على الإقرار بها كما أقرَّ بها من آمن منهم، ثم ذكر لهم أنَّ ملته هي ملة إبراهيم التي لا يرغب عنها إلاَّ من سفه نفسه، وهي دين التوحيد الخالص الذي أسلم فيه لرب العالمين، ووصى بنيه به من بعده، وكذلك وصى يعقوب بنيه به أيضاً، ثم ختم ذلك بأنَّ ما قصه من أمرهم وما كانوا عليه من الإسلام والتوحيد لا يعود نفعه إلاَّ إليهم، ولا ينتفع اليهود والنصارى بانتسابهم إليهم لمخالفتهم لهم ﴿**تلك أمة قد خلتْ لها ما كسبتْ ولكم ما كسبتم ولا تسألونَ عمَّا كانوا يعلمون**﴾.

الرد على مقالتهم السابعة ـ الآيات: ١٣٥ ـ ١٤١

ثم قال تعالى: ﴿**وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين**﴾ فذكر مقالتهم السابعة، وهي قول بعضهم للنَّبي (ص): ما الهدى إلاَّ ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد. وقد قالت النصارى مثل ذلك أيضاً، فجمع مقال الفريقين ليرد عليهم جميعاً، ثم ردَّ عليهم بأمره (ص) أن يقول لهم: ﴿**بل ملَّة إبراهيم حنيفاً**﴾ أي بل نتبع ملة إبراهيم الخالصة من الشرك الذي وقعوا فيه، وبأمره المسلمين أن يقولوا لهم: ﴿**آمنَّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم**﴾ الآية فإن آمنوا بذلك ولم يفرقوا بين أحد من الأنبياء فقد اهتدوا إلى الدين الذي يجمعهم، وإن لم يؤمنوا به فسيبقون على ما هم فيه من شقاق، وهذا الدين هو صبغة الله لا ما صارت إليه اليهودية والنصرانية، ثم أمر النبيّ (ص) أن يذكر لهم أنه إنَّما يدعوهم إلى الإيمان بربهم، أفيحاجون فيه وهو ربهم جميعاً، أم يقولون إنَّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى، والله يعلم أنَّهم لم يكونوا كذلك ﴿**تلك أمةٌ قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عمَّا كانوا يعملون**﴾.

الرد على مقالتهم الثامنة ـ الآيات: ١٤٢ ـ ١٧٧

ثم قال تعالى: ﴿**سيقول السفهاء من الناس ما ولاَّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾ فذكر مقالتهم الثامنة، وهي قول بعضهم بعد تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة: يا محمد، ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها؟ وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه، إرجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك. وإنَّما يريدون بذلك فتنته عن دينه، فأمر النبيّ (ص) أن يرد عليهم بأن المشرق والمغرب لله يولي إليهما من يشاء، وبأنَّه بهذه القبلة يجعلهم أمة وسطاً بين أمم الشرك بالشرق، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى بالغرب، ليكونوا شهداء عليهم بعد تبليغهم دينهم، وبأنَّه لم يعد بالقبلة إلى ما كانت عليه قبل الهجرة إلاَّ ليميز بين المؤمنين الصادقين الذين يعلمون أنها الحق، والمنافقين الذين يبطنون الكفر ويتأثَّرون بتلك المقالة، وبأنَّ قبلة بيت المقدس لم تكن القبلة اللائقة بالمسلمين، ولهذا كان النَّبيّ (ص) يقلّب وجهه بالدعاء لتحول قبلتهم إلى الكعبة، والمنصفون من أهل الكتاب يعلمون أنَّها الحق من ربهم، أما غيرهم فلا يؤمنون بها وإن أتاهم بكل آية عليها، على أنَّهم مختلفون في قبلتهم، فإذا اتبع قبلة بعضهم أغضب غيرهم.

ثمَّ ذكر أنَّ لكل أمة قبلة هو موليها، فليستبق المسلمون إلى الخيرات من الأعمال الصالحة، لأنَّها هي المقصود الأهمّ، وشأن القبلة دون شأنها، ثم أمره أن يولّي وجهه شطر المسجد في أي مكان كان لأنَّه الحق منه، وأمر المسلمين أن يتّبعوه في ذلك لئلاَّ يكون للناس عليهم حجة، وكان اليهود يقولون: لم يدرِ محمد أين يتوجه في صلاته حتى هديناه. وكان العرب يقولون: إنَّه كان يقول

أنا على ملة إبراهيم، والآن ترك التوجه إلى الكعبة، ومن ترك التوجه إلى الكعبة فقد ترك دين إبراهيم.

ثمّ ذكر حكمة ثانية لذلك وهي أن يتم عليهم نعمته بجعل كعبتهم قبلتهم، كما جعل رسولهم منهم، ثم أمرهم أن يقابلوا ذلك بذكره وشكره، وأن يستعينوا على ذلك بالصبر والصلاة والجهاد في سبيله، فإذا أصابهم في ذلك شيء من الخوف والجوع ونحوهما فليصبروا عليه ليكون لهم بشرى الصابرين، ثم ختم ذلك ببيان أنّ الصفا والمروة من شعائر الله بالمسجد الحرام الذي أمروا بالتوجّه إليه، وكان الأنصار من أهل المدينة يكرهون أن يطوّفوا بينهما.

ولمّا انتهى من الرد عليهم في ذلك شرع في تهديدهم على كتمان ما جاء في التوراة من البشارة بالنّبيّ (ص)، فذكر أنّ من يفعل ذلك منهم يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون، وأنّ من تاب منهم عن الكتمان وآمن يقبل الله توبته، ومن أصرَّ على الكفر استحقّ تلك اللعنة، ثم شرع يوبخ اليهود على انقيادهم لأولئك الأحبار الذين يكتمون عنهم ذلك واتخاذهم أنداداً من دونه، فذكر لهم أنّ إلههم واحد لا شريك له، وأنّ في خلق السماوات والأرض وغيرهما آيات دالة على تفرّده بالألوهية، فلا يليق بهم أن يتخذوا أحبارهم الذين يكتمون عليهم ذلك أنداداً من دونه، فيحبوهم كحبه ولا يعصونهم في شيء ولو يرون ما أعدَّ لهم من العذاب لتدبروا في أمرهم، لأنّهم حين يرونه تتقطع بهم الأسباب، ويتبرّأ المتبوعون من التابعين، فلا يمنعون عنهم شيئاً من العذاب، ويودُّ التابعون لو أنّ لهم كرة إلى الدنيا ليتبرّؤوا منهم كما تبرّؤوا منهم، ثم أمرهم بعد هذا التحذير البالغ من أحبارهم أن يأكلوا ممّا في الأرض حلالاً طيّباً، ولا يتبعوا خطواتهم فيما يحرمون عليم من الطيبات، لأنّهم يتبعون بهذا خطوات الشيطان وهو أشدّ أعدائهم، ويقولون على الله ما لا يعلمون تقليداً لأحبارهم، ولكنّهم إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله من حل تلك الطيبات أبوا إلّا تقليد أولئك الأحبار، ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، ومثل من يدعوهم إلى ذلك كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلّا دعاءً ونداءً، ولا يفهم ممّا يُدعى به شيئاً.

ثمّ ترك دعاءهم إلى ذلك لأنّه لا يرجى صلاحهم، وأمر المؤمنين بما أمر به أولئك المخالفين، وأن يشكروه على ما أحلّ لهم من ذلك، وذكر لهم أنّه لم يحرِّم عليهم إلّا الميتة والدم وما ذكر معهما، ثم عاد إلى أولئك الأحبار فذكر أنّهم يكتمون ما أنزل الله من البشارة بالنّبيّ (ص)، ويشترون بهذا ثمناً قليلاً من دنياهم، وهددهم بأنّهم يأكلون به ناراً في بطونهم، وينالون به غضبه عليهم في أخراهم، إلى غير هذا ممّا ذكره في تهديدهم، ثم ذكر أنّهم استحقوا ذلك بأنّه نزل القرآن بالحق فلم يؤمنوا به، ووقعوا في ذلك الشغب والشقاق البعيد، وهو الذي جاء في تلك المقالات التي ردَّت عليهم.

ثمّ ختم الجدال معهم بأنّ ما يتعلقون به من أمر القبلة لا يذكر فيما يجب من البرِّ، ولكن البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيّين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى

والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، إلى غير هذا من أنواع البرّ، ثم مدح من جمع ذلك كله فقال: ﴿أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾.

حكم القصاص ـ الآيتين: ١٧٨ ـ ١٧٩

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى﴾ الآية، فشرع في بيان الأحكام التي أراد ذكرها في هذه السورة، وذلك بعد أن انتهى من محاجّة اليهود، ومهّد له بأنّ المهم هو ما جاء به القرآن من الأحكام، لا ما تعلّقوا به من أمر القبلة ونحوه، ولا شك أنّ في هذا ما تستشرف به النفس لبيانها، وتتطلّع إلى معرفة بعضها، وقد بدأ منها بحكم القصاص الذي يراد به حفظ النفس، وهو من أهم أغراض الشرائع، وقد كان اليهود يوجبون فيه القتل فقط، وكان العرب لا يقتصرون على قتل القاتل، فأتى الإسلام فيه بالقصاص العادل، وندب إلى أخذ الديّة والعفو عن القاتل، ثم ختمه بما في القصاص من الفوائد العظيمة ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلّكم تتقون﴾.

حكم الوصية ـ الآيات: ١٨٠ ـ ١٨٢

ثم قال تعالى: ﴿كُتِب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتّقين﴾ وكانوا قبل الإسلام يوصون للأبعدين طلباً للفخر والشرف، ويتركون الأقارب في الفقر والمسكنة، فجعل الوصية لهم لأنهم أولى بمال قريبهم، ثم حذّر من تبديل الوصية إلّا إذا كان فيها جنف أو إثم ﴿فمن خاف من مُوصٍ جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه إنّ الله غفورٌ رحيم﴾.

حكم الصيام ـ الآيات: ١٨٣ ـ ١٨٧

ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلّكم تتّقون﴾ فذكر أنّه أوجب عليهم الصوم كما أوجبه على الذين من قبلهم، وأنّه في شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن، وأوجب الفدية على من لا يطيق الصوم فيه لمرض أو نحوه، وندب إلى إحيائه بالتكبير والذكر والدعاء، ثم ذكر أنّه أحلّ لهم ليلة الصيام الرفث والأكل والشرب إلى طلوع الفجر، إلى أن قال: ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبيّن الله آياته للناس لعلّهم يتقون﴾.

تحكيم الكسب الحرام ـ الآية: ١٨٨

ثم قال تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ الآية، فحرم أن يأكل بعضهم أموال بعض بالباطل، وأن يرشوا بها الحكام ليأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وهم يعلمون.

حكم الأهلة ـ الآية: ١٨٩

ثم قال تعالى: ﴿يسألونك عن الأهلّة قل هي مواقيتُ للناس والحج﴾ الآية، وقد سألوه عن الأهلّة ما بالها تبدو دقيقة كالخيط ثم تزيد حتى تمتلىء وتستوي ثم تنقص حتى تعود كما بدت؟ فأجابهم ببيان حكمها وهو أنّها مواقيت للناس والحج، لأنه لم يبعث إليهم ليعلمهم مثل ذلك من علم الفلك، ثم ضرب لسؤالهم مثلاً من يأتي البيوت من ظهورها، وكنّى بهـذا عن العدول عن الطريق الصحيح في السؤال، ثم أمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها ويتّقوه لعلّهم يفلحون.

حكم القتال ـ الآيات: ١٩٠ ـ ١٩٦

ثم قال تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنّ الله لا يحبُّ المعتدين﴾ فأذن لهم في قتال من يقاتلهم، ونهاهم عن قتال من لم يقاتلهم، ثم أمـرهم أن يقتلوا من أمروا بقتالهم في أي مكان وجدوهم فيه، ونهاهم أن يقاتلوهم عند المسجد الحـرام إلّا إذا بـدأ وهم بالقتال، إلى أن ختم ذلك بأمرهم بالجهاد بأموالهم أيضاً فقال: ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إنّ الله يحبُّ المحسنين﴾.

حكم الحج والعمرة ـ الآيات: ١٩٦ ـ ٢١٤

ثم قال تعالى: ﴿وأتمُّوا الحج والعمرة لله﴾ الآية، فذكر أحكام الحج والعمرة إلى أن أمرهم بذكر الله عند المشعر الحرام، ثم ذكر أنّ الذين يشهدون هذه المناسك منهم كافر لا يقصد من ذكره ودعائه إلّا الدنيا فقط، ومنهم مسلم يقصد من ذكره الدنيا والآخرة، ثم أمرهم بذكره في أيام التشريق ونفي الإثم عمّن تعجّل في يومين منها وعمّن تأخر إلى آخرها، ثم ذكر أنّ ممّن يشهد هذه المناسك فريق المنافقين، وأنّ من يسمعه يعجبه قوله في الحياة الدنيا، وأنّه يشهد الله على إخلاصه وهو ألدُّ الخصام. وأنّه إذا انصرف من مناسكه سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرثَ والنسل، وأنّه إذا قيل له اتّق الله أخذته العزّة بالإثم.

ثمّ ذكر أنّ ممّن يشهد هذه المناسك مؤمنين صادقين يبتغون بها رضاه، ويتّقونه حق تقواه، ثم عاد إلى أولئك المنافقين الذين يظهرون الإيمان، فأمرهم أن يدخلوا في السِّلم ويتركوا ذلك الفساد في الأرض، وحذّرهم أن يزلّوا عن ذلك وخوّفهم هول يوم القيامة حين يأتي أمره بالحساب والعذاب، وأمر النّبيّ (ص) أن يذكر لهم ما جرى لبني إسرائيل حين زلّوا ليعتبروا بهم، ثم ذكر السبب في نفاقهم وهو اغترارهم بزينة الحياة الدنيا، واعتقادهم أنّهم أعلى منزلة من المؤمنين الصادقين لغناهم وفقرهم، وقد كان هذا هو السبب في كفر من قبلهم، فإنّ الناس كانوا أمة واحدة قائمة على الحق، ولم يختلفوا إلّا بسبب البغي والتحاسد والتنازع في طلب الدنيا، وقد هدى الله المؤمنين الصادقين لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، ثم ذكر أنّه لا بُدَّ لمن يريد الآخرة أن يناله من

الشدائد والفقر ما نال المؤمنين قبله من الرسل والذين آمنوا معهم ﴿**مستهم البأساء والضرَّاء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إنَّ نصر الله قريب**﴾.

أحكام متفرقة ـ الآيات: ٢١٥ ـ ٢٢٥

ثم قال تعالى: ﴿**يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإنَّ الله به عليمٌ**﴾ فرجع بعد ذلك الاستطراد إلى الكلام على الأحكام، وذكر حكم الإنفاق من جهة مصرفه وأنَّه يصرف للوالدين ومن ذكر معهما، ثم ذكر حكم فرض القتال[1] وأنَّه يجوز في الشهر الحرام للضرورة، ثم ذكر تحريم الخمر والميسر، ثم ذكر حكم الإنفاق من جهة أنَّه يكون من فضل الأموال، ثم ذكر حكم كفالة الأيتام بالإصلاح لهم ومخالطتهم في المأكل والمشرب، ثم ذكر حكم نكاح المؤمنين للمشركات ونكاح المشركين للمؤمنات، ثم ذكر تحريم الوطء في الحيض، ثم ذكر جواز إتيان النساء على أيِّ وجه فيما يجوز إتيانهنَّ فيه، ثم ذكر حكم الحلف به وأنَّه لا يؤاخذ باللغو فيه: ﴿**ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفورٌ حليم**﴾.

حكم الإيلاء والعدة والطلاق ـ الآيات: ٢٢٦ ـ ٢٣٧

ثم قال تعالى: ﴿**للَّذين يولّون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاؤوا فإنَّ الله غفورٌ حليم**﴾ فذكر حكم الإيلاء وعدة المولى عليها، ثم ذكر عدة المطلقة بعد الدخول. أنَّه يجوز مراجعتها إن طلقت مرة أو مرتين، ولا يجوز مراجعتها إن طلقت ثلاثاً إلَّا إذا نكحها شخص آخر، ولا يجوز إمساكها ضراراً بأن يراجعها في آخر عدتها ليطلقها ثانياً وتأخذ في عدة أخرى، ولا يجوز منعها من الزواج بعد انقضاء عدتها غيرة عليها، وإذا كان لها ولد فلها حق الرضاعة والنفقة حولين كاملين، ثم ذكر عدة المتوفي عنها زوجها وأنَّه يجوز التعريض بخطبتها في عدتها، ثم ذكر أنَّه لا عدة للمطلقة قبل الدخول ولها من المهر نصفه، ولما بيّن حقوق الرجال والنساء في ذلك أرشدهم إلى التسامح فيها فقال: ﴿**وأن تعفوا أقربُ للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إنَّ الله بما تعملون بصير**﴾.

حكم الصلاة في الأمن والخوف ـ الآيتين: ٢٣٨ ـ ٢٣٩

ثم قال تعالى: ﴿**حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين**﴾ فأمرهم بالمحافظة على الصلوات في حال الأمن، بأن يأتوا بها مستوفية الأركان، فإذا كانوا في شدة خوف أتوا بها كيف أمكنهم رجالاً أو ركباناً ﴿**فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علَّمكم ما لم تكونوا تعلمون**﴾.

---

(١) غير واضح في الأصل ص ٣٠.

حكم الوصية للأزواج ـ الآية: ٢٤٠

ثم قال تعالى: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم﴾ الآية، فذكر أنَّ الذين يتوفون منهم عليهم الوصية لأزواجهم بنفقة الحول وسكناه، فإن خرجن قبل ذلك بعد أن يقمن المدة التي ضربها الله لهنَّ فيما سبق فلا حرج عليهنَّ فيما فعلن في أنفسهنَّ من معروف أي نكاح صحيح، وكانوا في الجاهلية يوجبون عليهنَّ القيام بهذه الوصية.

حكم نفقة المطلقات ـ الآيتين: ٢٤١ ـ ٢٤٢

ثم قال تعالى: ﴿وللمطلقات متاعٌ بالمعروف حقاً على المتَّقين﴾ والمراد بالمتاع هنا نفقتهنَّ مدة العدة، وقد جعل ذلك حقاً على المتَّقين ﴿كذلك يبيِّن الله لكم آياته لعلَّكم تعقلون﴾.

الترغيب في الجهاد بالنفس والمال ـ الآيتين: ٢٤٣ ـ ٢٨٤

ثم قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إنَّ الله لذو فضل على الناس ولكنَّ أكثر الناس لا يشكرون﴾ فأخذ يرغب في الجهاد بالنفس والمال بعد أن أذن للمسلمين فيه وفرضه عليهم، وقد مهَّد لذلك بذكر قصة تدل على أنَّ الحذر من الموت لا يفيد، لأنَّ الحذر من الموت هو الذي يخوفهم من الجهاد، فذكر قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وهم قوم من بني إسرائيل أمروا بالقتال فتقاعسوا خوفاً على أنفسهم، فأرسل الله عليهم وباءً قضى على كثير منهم، فاعتبر به من نجا وجاهد في سبيل الله شكراً له على نجاته، ثم أمر المسلمين بالقتال في سبيله بعد هذا التحذير، ووعد من ينفق منهم شيئاً فيه بأن يضاعفه له أضعافاً كثيرة.

ثمَّ ذكر لهم قصة ثانية تقتلع(٢) خوف الجهاد من نفوسهم لقلَّة عددهم، وتشتمل على عظات تنفعهم في جهادهم، وهي قصة بني إسرائيل حين طلبوا من نبيهم صموئيل أن يبعث لهم ملِكاً يقاتلون تحت رايته، فلمَّا كتب عليهم القتال تولوا إلاّ قليلاً منهم، ولما ذكر لهم صموئيل أنَّ الله بعث لهم طالوت ملكاً عابوه لفقره. فردَّ عليهم بأنَّه يفضلهم ببسطة العلم والجسم، وبأنَّه يؤتي ملكه من يشاء ولا ينازعه أحد في ملكه، ثم ذكر ابتلاءه لجند طالوت حين خرج بهم، وأنَّه لم يصبر على هذا الابتلاء إلاّ قليل منهم، فساروا معه حتى إذا رأوا جالوت وجنوده قالوا لا طاقة لنا بهم، وقال الذين يظنون أنَّهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، ثم برزوا لهم واستعانوا بالله عليهم، فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة جزاءً له على قتله، ثم ختم القصة ببيان حكمة الجهاد في سبيله، فذكر أنَّه لولا دفع العصاة بالطائعين لفسدت الأرض، ثم نوّه

(٢) ويجوز أن تكون هذه القصة تفصيلاً للقصة الأولى.

بشأن ما تلاه من الآيات في تلك القصة وجعلها دليلاً على أنَّه من المرسلين، ثم ذكر أنَّه فضل بعضهم على بعض في الآيات، وأنَّه لو شاء لهدى الناس بها ولم يقتتلوا من بعد ما جاءهم منها، ولكنَّهم اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر، وقاتل الكافرون المؤمنين فقاتلوهم كما يقاتلونهم.

• ثمَّ أخذ يحضّهم على الجهاد بطريق الترهيب بعد أخذهم فيه بطريق الترغيب، فأمرهم أن ينفقوا فيه ممَّا رزقهم من قبل أن يأتي يوم لا يقبل فيه فداء، ولا تفيد فيه صداقة ولا شفاعة، ثم ذكر من عظمته ما يؤكد ذلك، ويثبت أنَّه لا يمكن أن يشفع أحد عنده إلاَّ بإذنه، وهو لا يأذن بالشفاعة إلاَّ في حق الطائعين المجاهدين في سبيله، ثم ذكر أنَّه لا يكرههم بذلك على الإنفاق والجهاد، لأنَّه لا إكراه في الدين، وقد تبيّن الرشد من الغيّ، فمن يؤمن بالله ويكفر بالطاغوت فقد استمسك بالعروة الوثقى، ثم ذكر أنَّه هو الذي يتولى المؤمنين فيخرجهم من الظلمات إلى النور، وأنَّ الكافرين أولياؤهم الطاغوت فيخرجونهم من النور إلى الظلمات، وبهذا يصير المؤمنون إلى الإيمان باختيارهم وتوفيق الله لهم، ويصير الكافرون إلى الكفر باختيارهم وإيثارهم ولاية الطاغوت لهم، ثم ضرب لذلك ثلاثة أمثال: **أولها** مثل إبراهيم ونمرود، فقد أفحمه إبراهيم بدليله ولكنَّه تولى الطاغوت فأضلَّه، **وثانيها** مثل الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، فقال: أنَّى يحيي هذه الله بعد موتها؟ ثم تولاَّه الله فهداه، **وثالثها** مثل إبراهيم حين قال: رب أرني كيف تحيي الموتى؟ فأراه ذلك وتولاَّه فزاده إيماناً على إيمانه.

ثم عاد إلى الترغيب في إنفاق المال في سبيله ليفصِّل تلك الأضعاف الكثيرة التي ذكرها في الطريق الأول، ويضرب لذلك مثل الحبة التي أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، ويبيِّن ما يجب في ذلك من ترك المنِّ والأذى، لأنَّهما يبطلان ثوابه عنده، ومن اختيار الطيبات للإنفاق، فينفق كل شخص من طيبات كسبه، ولا يسمع للشيطان الذي يخوفه من الفقر فيحسن له الإنفاق من الخبيث، بل يسمع لله الذي يعده مغفرة منه وفضلاً في الرزق، ويؤتي الحكمة والعلم وذلك خير من المال، ثم ذكر أنَّه يعلم ما يختارونه للإنفاق من أموالهم، وحذَّرهم من مخالفة أوامره في الإنفاق، وذكر أنَّ الإنفاق منه ظاهر ومنه خفي، وفضَّل الخفي على الظاهر لبعده عن الرياء، ثم ذكر للنبيِّ (ص) أنَّه ليس عليه أن يهديهم إلى ما أمرهم به من الإنفاق، لأنَّ الهداية بيده تعالى، ولأنَّ ما ينفقونه لا يعود نفعه إلاَّ عليهم، لأنَّهم ينفقونه ابتغاء وجهه تعالى، وللفقراء الذين أحصرهم الجهاد عن طلب الرزق، ثم وعد الذين ينفقون أموالهم بأنَّ لهم أجرهم عنده ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ثمَّ أخذ في الكلام على الربا لأنَّه هو الذي يربي في النفس الشحّ بالإنفاق، وذلك لأنَّه يزيد في المال والإنفاق ينقص منه، فقبّح حال الذين يأكلون الربا، وهددهم عليه أقوى تهديد، وذكر أنَّه يمحق المال الذي يدخله الربا، ويُربي المال الذي يدخله الإنفاق والصدقات، وأنَّه لا يجب من يأكل الربا من كل كفَّار أثيم، وأنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الإنفاق وغيره لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ثم أمر الذين كانوا يتعاطون الربا قبل تحريمه أن يتركوا ما

بقي منه، وآذنهم بحربه إن لم يفعلوا ما أمرهم به، وإذا تابوا فليس لهم إلّا رؤوس أموالهم، وإذا أعسر بها المدين أمهل إلى أن تتيسّر له، والتصدق بها خير لهم لو كانوا يعلمون.

ثمّ أحلّ لهم السلم ليجدوا منه وسيلة للحصول على ما يحتاجون إليه من المال بدل الربا، وأمرهم إذا تداينوا فيه بدين أن يكتبوه ويشهدوا عليه، وإن كانوا على سفر ولم يجدوا كاتباً فرهان مقبوضة، ثم نهاهم عن كتمان الشهادة في ذلك، وأخبرهم بأنّه يعلم ما يفعلونه فيها، وهو الذي له ما في السماوات وما في الأرض، وإن يبدوا ما في أنفسهم أو يخفوه يحاسبهم به: ﴿**فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيءٍ قدير**﴾.

الخاتمة ـ الآيتين: ٢٨٥ ـ ٢٨٦

ثمّ قال تعالى: ﴿**آمن الرّسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون**﴾ الآية، فختم السورة بذكر إيمان الرّسول والمؤمنين بالقرآن والملائكة وغيرهم ممّا ذكره ليختمها بذكر إيمانهم بعد أن بدأها بذكر كفر المنافقين واليهود. وذكر ما ذكر من حسن إخلاصهم وطاعتهم، وطلبهم منه وهو لا يكلّف نفساً إلّا وسعها لها ما اكتسبت وعليها ما اكتسبت ألا يؤاخذهم بنسيانهم أو خطئهم، ولا يحمل عليهم إصراً كما حمله على الذين من قبلهم من اليهود وغيرهم، إلى أن قال على لسانهم:

﴿**واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين**﴾[٣].

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامى

(٣) الشيخ عبد المتعال الصعيدي: «النظم الفني في القرآن».